انتصار موت الشهادة

بقلم غسان خاف

قصة

نشرتها مجلة "الغريب"
العدد ٥٢ و٥٣ عام ١٩٦٨

في مساء ليلة أحد في مدينة روما في أواخر القرن الأول للميلاد، جرت هذه المحادثة في مخفر للشرطة:

- نعم سيدي القائد!
- لماذا تأخرت وقد أرسلت أستدعيك من مدة طويلة؟
- حالما انتهت مهمتي السابقة أسرعت إليك.
- حسنا يا كلوديوس، أنت ضابط أمين وشجاع.
- شكرا سيدي القائد.
- لقد وقع الإختيار عليك لتقوم بمهمة خطيرة هذه الليلة. خذ فرقة من الجنود وجب بها جميع أنحاء روما، لا تدع مغارة ولا زقاقا ولا سردابا دون أن تبحث فيه عن الخونة، أعداء الأمبراطور والأمبراطورية.
- لا شك أن سيدي القائد يقصد المسيحيين.
- ومن غيرهم؟ لقد صدر أمر من القيصر بإبادتهم عن بكرة أبيهم وستشهد روما غدا مصير الذين لا يسجدون لسيدنا الأمبراطور.

****

في تلك الليلة في مغارة نائية في إحدى تلال روما السبعة اجتمع المؤمنون المسيحيون للصلاة والعبادة.

****

- سيدي الضابط!
- ما بك يا مارتينوس؟
- سيدي، لقد رأيت نورا ينبعث من شق في التلة المقابلة.
- حسنا، ناد الفرقة.

****

اجتمعت الفرقة بكل هدؤ حول ضابطها المحبوب كلوديوس لتتلقى منه الأوامر الأخيرة للإنقضاض على مخبأ المسيحيين.

****

- سننطلق الآن بكل هدوء وحذر إلى التلة المقابلة ونحاصر المكان عند باب المغارة وننتظر، وحالما يخرجون يقفز عشرة منكم من فوق فوهة المغارة ويقفون سدا في بابها بينما الآخرون يقبضون على الذين تجمعوا في الخارج.

تتعالى أصوات الإستحسان من الجنود.

- رائع إنها خطة محكمة.
- لن يفلت أحد منهم.
- ستكون حفلة "الكولوسيوم" رائعة غدا.
- هه، هه، هه.
- حافظوا على الهدوء وإلا أفلتت الفريسة من يدنا.

****

اقتربت الفرقة من المغارة وضربت حولها حصارا محكما سد كل منافذ الهرب منها، وانتصبت الرماح ولمعت السيوف في ذلك الليل، بينما انتشرت رائحة الشموع المحترقة وهي تهيب بالجنود أن يقفوا بخشوع ووقار، وانبعث من الداخل لحن رخيم وكلمات عذبة شقت طريقها إلى قلوب الجنود القاسية فطأطأوا الرؤوس احتراما وحبسوا الأنفاس رهبة.

بينما الظلم على الأرض يدوم — لا مكان في القلوب للسـ ـلام
غرباء نحن في هذا الأديـ ـم — إنما لنا السماء في الختـ ـ ـام

نحمل الإنجيل كلمة الخـلاص — لأناس في الحياة يائسيـ ـ ـن
في ظلال الرب نلقى كل خير — وسلام من يد الفادي الامـين

نحن أبطال النضال سائـرون — لبلاد المجد فوق في النعـ ـيم
نترك الأرض التراب لنكـون — في عشاء عرس فادينا العظيم

وفي داخل المغارة يفتح أحد المؤمنين الشيوخ مخطوطة ويشرع في القراءة وتصل إلى الجنود في الخارج مقتطفات منها:

إن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكنا فيكم،
فالذي أقام يسوع سيقيمكم بروحه الساكن فيكم ...
إن آلام الزمان الحاضر لا تقاس
بالمجد العتيد أن يستعلن فينا ...
إن كان الله معنا، فمن علينا؟ ...
الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا...
إن المسيح الذي مات وقام وجلس عن يمين الآب
هو نفسه الذي يشفع فينا ...

من سيفصلنا عن محبة المسيح؟
أشدة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عري أم خطر أم سيف؟
لا شيء يفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا.

وبعد دقائق معدودة ارفض الاجتماع وخرج المسيحيون الأولون.

****

شهدت روما، العريقة في مدنيتها وحضارتها، في الأحد التالي احتفالا ضخما وفد إليه الناس من كل حدب وصوب لمشاهدة المسيحيين يتلوون على أعمدة منصوبة في وسط مدرج "الكولوسيوم" تلتهمهم النيران، وشعارهم "لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح".

... في الأحد التالي كان السنتوريون (قائد المئة) كلوديوس مع الجندي مرتينوس وبعض من فرقته في إحدى مغاير تلال روما السبعة يعبدون المسيح الرب.